

الأدب والعلم للأستاذ محمد محمد المدني

كتب إلى صديق من زملائي على عهد الدراسة كتاباً يقول فيه : —

« إني مواظب على قراءة الرسالة بشغف واهتمام ، ولست تكتب على صفحاتها مقالاً إلا قرأته لك ، وتنسجت فيه روحك ، وارت به في نسي ذكريات محببة عن أيامنا الجميلة التي كنا نختلف فيها إلى دروس الأدب والبلاغة يلقيها المرصق وعيارة والبطراوى والأسكندري وغيرهم ، وتجادب فيها أطراف المحاوره ، وأهداب المذاكرة ، وتساق كثوس الشعر والنثر كأنها رحيق مخنوم . وقد أذكر زميلنا الذي كان مولماً — في كتاباته الإنشائية — برواية أشعار التنسكين والتزهدين ، وأتانا كنا نقرب في الضحك إذا سمعنا أستاذ الإنشاء يقرأ طرفاً مما كتب ، ويحاسبه على أفكاره المتيقنة . وما لهذا كتبت إليك ، ولكني أريد أن أحدث إليك في أمر كثيراً ما هممت بأن أحدثك فيه :

أنت تعرف رأيي في أسلوبك الكتابي ومحوثك العلمية ، وتعرف حبي لك وشديدي غيرتي عليك ، فهل لي أن أسألك : لماذا تنحو في اختيار موضوعاتك هذه التواحي الأزهريه فتتحدث عن الفقه وأصول التشريع ودراسات الأزهر وأسلوبه في التفكير وما يفتنى له من علو ورفعة شأن ، ولا تراك تتحدث عن الأدب والشعر وهما في هذا العصر أنشودة الشدايق ، وأغرودة الحداء ، وثقافة الثقفين ؟ لو كنت أعلم أنك تخرجت في علوم الشريعة لقلت : رجل مشغوف بما درس ، معنى ياشباع نهمه العلمى منه ، ولكنك تخرجت في دراساتك تخرج الأدب ، وملت شهادة التخصص في علوم البلاغة والأدب ، فكيف تجحد حقهما عليك وتنسى فضلهما في تهديك وتثقيقك ؟ وهل تتجيب إلى الأدب طالباً ، وتتنكر له أستاذاً ، فتقطع به صلتك ، وتروى عنه وجهك وتنصرف إلى غيره مما ليس منه ولا يعت إليه ؟

ما هذا الذي أغرمت به ، وملاك عليك فضلك ، واستبد بملكك ؟ وأي فرق بينك وبين زميل التنسك الذي أحدث إليه

صدر هذا الكتاب ؟ ولم إذن كفت تسخر منه ، وتُقرب في الضحك عليه ؟

لا يا صديقي ، ما لهذا يريدك أصدقاؤك ، وما لهذا أردت نفسك ، وما لهذا أعدت « شعبة البلاغة والأدب » في تخصص الأزهر . لا تكفر بالأدب ولا تنأ بجانبك عنه ، واستنقر لذنبك ودع الفقه والجidal فيه ، ودع الأزهر والحديث عنه ، والتحرر له والبقاء عليه ، فما ذلك بمن عنك قليلاً . وسوف يبقى الفقه كما هو ، وسوف يبقى الأزهر كما هو ، وسوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك في شأنهما هباء كما ضاعت من قبل صيحات وصيحات ! عد إلى أحضان الأدب يا صديقي وأسمنا شدوك عند رياضه وغياضه ، وطر إلى آفاقه ، وحلّق بجنايك في سماه ، فربما غنيت على قيثارته الحاناً يرويه عنك الزمان ... »

هذا كتاب صديقي إلى ، أثبتته كما هو لأنه وإن كان كتاباً خاصاً يتحدث عن شأن له ناحية من العموم ، ويمثل رأياً يترع إليه جبهة من شباب التأديين في هذا العصر فهم به مولعون ولست أرى أنى أغاضب الأدب وأجافيه — كما يتصور هذا الصديق — حين أكتب في موضوعات علمية ، أو حين أعالج مشكلة من المشكلات الخاصة أو العامة ، فإن الأدب ليس محصوراً في دائرة الماطفة والخيال وما يتصل بهما ، ولكنه أوسع من ذلك دائرة وأبعد أترأ . وقد أتى على الناس حين من الدهر وهم يظنون الأدب حلية تراد للزينة وتستكمل بها مظاهر الترفه ، فكانت قصور الملوك والأمراء وذوى اليسار كما تقم التمدن والسقا والجوارى والفنان ، تضم الشعراء والكتاب والقصاص والرواة ، قصارهم أن يكونوا أداة لهو وتسلية تشرح بهم الصدور وتنسى العموم . فلما ترفع الأدياء والشعراء عن تلك للزينة قصنوا إلى الأدب والشعر بالتركيم فصانوها عن التبذل في خدمة الأمراء والثرارة إلا قليلاً ، فأصبح الشاعر يقول ليرضى ذوقه الأدبي ، وأصبح الكاتب يكتب ليصف شعوره هو قبل أن يصف شعور الآخرين ؛ وبذلك استقل الأدب ، وقال الأدياء والشعراء حريتهم ، وانطلقوا يهيمنون في جوم الصافي ، فيصمون بأحلامهم اللذيذة ؛ لا يحبون أن يكدرها عليهم مكدر ، ولا أن يفسدها عليهم مفسد ؛

الإسلام لكان لنا أن نؤمل دورة الفلك ، وأن نأخذ في تكميل أنفسنا ، وتصحيح أخطائنا ، والرجوع إلى قوميتنا استعداداً لما ينتظرنا . وهذه الشريعة الإسلامية هي الشريعة التي نلنا بفضلها أسباب السوء في الماضي ، ولم يجد أعداؤنا منفذاً إلينا ونحن متمسكون بها ؛ وفتح هذه الشريعة هو فتح الحياة والعمل ،

هو فتح العدل والرحمة ، هو فتح الحضارة والمدنية في أبهى صور الحضارة والمدنية ؛ فإذا تكلم في شأنه المتكلمون ، ودعا له الكتاب ، وعرض الأدياء الماملون بعض صورته على الناس ، وخلصوه مما أضيف إليه واختلط به ، كل بمقدار ما يستطيع ، فإنهم لا يقومون في ذلك بواجب ديني فحسب ، وإنما يقومون مع ذلك بواجب قومي وطني لا مناص لأهل العلم والأدب جميعاً

من التماون على حمل أعبائه . ومثل ذلك يقال عن الأزهر : ينبغي أن يلتفت إليه أباؤنا ، وأن يكتب في شأنه كتابنا ، لأنه (جامعة الشرق) ، ووارث ثقافته ، وعنوان مجده ، ومعدن آماله !

إنك - يا صديقي - تقول لي في كتابك : « سوف تضيع صيحاتك وصيحات غيرك في شأنها هباء كما ضاعت من قبل

صيحات وصيحات » . وأحب أن أقول لك إنه لم يضع شيء أبداً ، وإن الذين صاحوا من قبل قد أروا بصيحاتهم آثراً بعيدة المدى في العلم والتفكير والإصلاح . ويمكنك أن ترجع إلى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده ، لتوازن بين عقلية الأزهر للماضية وعقلية الحضارة في العقائد والفقه وأحكام الماملات والأحوال الشخصية ، فتلمس الفرق بينهما ، وتدرك أن صيحات هذا المصلح الديني لم تذهب هباء .

ولقد كان الأستاذ الإمام محمد عبده أديباً رائع البيان ، وكان له ذوق ممتاز في فهم الشعر والنثر ظهر أثره في تفسيره لما فسر من القرآن ، فهل منته ذلك أن يؤلف في علم الكلام ، وأن يفتي في الفقه ، وأن يشرع شبابة قطه لتأييد دعوته الإصلاحية الكبرى ؟

بل لقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه أديباً عاش في البادية ونزل في هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحذق لغتها ، ويروي أشعارها ، حتى يبلغ من ذلك شأواً بعيداً ، ولكنه لم يجمل هذا غرضاً ، وإنما اتخذ وسيلة

ولكنهم كانوا من ذلك في شبه غيبوبة عن الحياة العملية المثمرة ، لا يفتنون إلى صميمها ، ولا يُصنَوْنَ إلا بمحواشها وأطرافها ، ورضوا بالفقر حليفاً ، وباللبؤس صاحباً ؛ وخیلوا للناس أن الأدب والتقر صنوان ، ورضيما لبان ! وأن الأدياء والشعراء هم وراث « أبي الشمقمق » في كل زمان !

أما في هذا العصر ، فقد تغيرت الثُل ، واستبدل الأدياء بنهجهم في الحياة نهجاً سواه : أصبح الأديب هو الذي ينفذ بقلبه وذوقه إلى دقائق العلوم ، ومعضلات الفكر والآراء . هو الذي يجلو التوامض ، ويفتح المقاليق ، ويسر المصائر . ذلك اليوم هو صميم الأدب ، وقصارى الأديب ، وذلك هو الوضع الصحيح الذي ينبغي أن تقوم عليه العلاقة بين الأدب والعلم !

من ظن أن الأدب في هذا الزمان إنما هو أنشودة تشد ، أو أغزودة تترد ، أو خيال يسبح في جوه الماعون ، أو وصف زهرة مشرقة ، أو طائر ضداح ، أو عاشق ولهان ، أو قلب خفاق ، أو عين باكية ، أو نثر بسلام ، أو جمال فتان ، أو قد محشوق ، فقد ظن عجزاً !

إن ذلك من الأدب حقاً ، ولا يستطيع أن ينكر ذلك منكر ، ولكنه اليوم ليس المثل الأعلى للأدياء ، وإنما هو لون من ألوان فنلهم الروحي يشهونه الفينة بعد الفينة ، وهو بعد ذلك أقرب ثمرات الأدب إلى يد الأديب وأيسرها مثلاً . أما العلوم والمعارف ؛ أما مشكلات الحياة وقضايا القول ؛ أما سهر الليالي ومجافة الجنوب للمضاجع في سبيل التحصيل والتزود من زاد البصائر ، فتلك هي الخلبة لمن أراد السباق !

أهينك بالله - يا صديقي - أن تستخف بأمر الفقه والأصول وأسرار التشريع ، أو يتقل عليك القول في إصلاح الأزهر وتقوم ميله ، أو يداخلك اليأس حين ترى الهاء مستشرياً ولطبيب حارثاً إن الشرق الإسلامي قد استفاق من سباته العميق ، وإنه يريد أن ينهض وأن يستعيد مجده السالف يوم كان مصدر النور والمرقة ، بل يوم كان مصدر الهداية ومنبت الخير ، ولو تأملنا بوادر هذه النهضة وتأملنا إلى جوانبها بوادر الانهيار ، بل عوامل التمار التي تعمل عملها السريع في إهلاك أعداء الشرق وخصوم